العزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلا من أبطال التاريخ إذا كان له "دور تاريخى" يقضيه بملامحه ودواعيه..

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا لا قمة ورائها، وأنه يعدو هذا الدور فإذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل حقه فى أدوار التاريخ، أو يعدوه إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه، وتدخل فى باب من السعى والدارية غير بابه..

وقد بلغ خالد فى معركة اليرموك قمته التى لا مرتقى بعدها لراق: قمع فتنة الردة، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة، ووحد قيادة المسلمين فى حروب الرومان، فصدهم إلى ما وراء حدودهم، وخلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح أن تسمى بالأعمال الخالدية، فهى بين حصار أو مراوغة أو تسليم وإنما يراد خالد لتحطيم قوى الأعداء التى تعز على التحطيم.

وإن يكن من عمل "خالدى" فى ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله فى مرج الروم، ثم عملته فى قنسرين(١).

فى مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلهما قائدان رومانيان هما جونس وتوذر كما سماه خالد، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجئ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يزيد بن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين. فاتفق خالد وأبو عبيدة على تعقبه ومفاجأته من خلفه قبل أن يفاجئ يزيد بن أبى سفيان. فأوقعاه فى الفخ الذى نصبه: ولم يرجع خالد إلى أبى عبيدة إلا وتوذر مقتول وجيشه مبدد، كما قال:

نحن قتلنا توذراً وشوذراً   وقبله ما قد قتلنا حيدرا

---

(١) قنسرين وقنسرون - كورة الشام - إعجام الإعلام. ص٢٣٢".

ونحن أزرنا الغيضة الأكيدرا[1]

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها، فطاولوه وأبرموه[2]. فقال لهم محنقا: "لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا"، وأبى أن يصالحهم بعد ذلك إلا على تخريب المدينة ودك حصونها. فحمت بذلك ضرباته الخالديات.

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى "دوره التاريخى" أكمل وفاء، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شىء ولا تغير مجرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان.

أما سائر الميادين فقط تولاها قواد آخرون فـفتحت بقية فارس، وفتحت مصر وشطر من إفريقية الشمالية، وكتبت بذلك "أدوار تاريخية" أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقروف وعمرو بن العاص، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم المقدرة ولا يقلون عنهم فى المقصد والنية، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيف إليه مجدا فوق مجده، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء، وتحرم الإسلام أيديا كثيرة تعمل له وتدفع عنه. وليس هو[3] بمستغن عن تلك الأيدى الكثيرة بيد واحدة، بالغًا من بلغ الرجحان والاستعلاء.

قلنا فى أول هذا الفصل إن انقضاء "الدور التاريخى" لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه، ومنها أن يعدو دوره[4] إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه وتدخل فى باب من السعى والدراية غير بابه، ونزيد على هذا أن غناء

(١) الأكيدر: هو الأكيدر بن عبد الملك صاحب (دومة الجندل) وكان خالد قد أمر بضرب عنقه. والغيظة: الموضع يكثر فيه له الشجر ويلتف، والمراد بازراته الغيضة أنه قتله.

(٢) أبرموه: جعلوه يبرم بهم ويتضايق.

(٣) ليس هو: أى الإسلام.

(٤) يعدو دوره: يتجاوزه.

الآخرين فى هذا خيراً من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله إلى من هو أحق به وأخلق.

وفى ميدان الشام - بعد معركة اليرموك - كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد. لأنه موقف التسليم والمسالمة واستلال الحقود[1] وضمد الجراح وتقريب القلوب، وفى جميع أولئك يتسع المجال لهوداه أبى عبيدة ويضيق بضربات خالد. فأبو عبيدة إلى المسالمة إذا فتحت له أبوابها، ولا يبطئ عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها، فإن كانت بالمسألة جدوى فذاك، وإن كان يوم الضربات الخالديات فهى لديه يرمى بها فى مراميها. وإنما يكون العمل الأول هما لمن يسالم ويتقبل التسليم، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون فى العداء كأهل قنسرين فلا يسلمون إلا بتخريب الديار ودك الحصون.

ولا جرم، كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبى عبيدة فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره، وكان خالد يرضى بهذا حينا ويسخط منه حينا، ما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبى عبيدة فى العفو عن أهلها. فإنه كان يحسبهم[2] مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبى والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر[3] والموادعة، ولولا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على هل قنسرين.

فصواب التاريخ صواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا بإسناد الأمر إلى أبى عبيدة بن الجراح فى أوانه المقدور، وإن كان تلاقيًا لم يجر على قصد مرسوم.

---

(١) استلال الحقود: ازالتها. (٢) يحسبهم: يعدهم ويعتبرهم.

(٣) المهاد: الفراش، والأرض المنخفضة: المستوية، وفى العبارة استعارة.

ورأى الفاروق فى أبى عبيدة بن الجراح معروف. فقد كان لا يعدل به أحدا من الصحابة الأولين، وق هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام، وقد هم بترشيحه للخلافة لو كان حيًا لعهد إليه ولم يلجأ إلى مجلس الشورى الذى وكل إليه أمر انتخاب الخليفة بعده..

وتحدث عمرو بن العاص مرة إلى الفاروق فى رئاسة الجيوش الموجهة إلى الشام فأجابه فى مقال صريح: "..إنه ليس على أبى عبيدة أمير، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة[1]، والنبى عليه الصلاة والسلام قال فيه: أبو عبيدة أمين هذه الأمة"

وكما عرف رأى الفاروق فى أبى عبيدة عرف كذلك رأيه فى سابقة الإسلام والغزو على الإجمال. فإنه خالف الصديق فى التسوية بين أنصباء[2] المسلمين كافة يوم أخذ الصديق فى توزيع الأرزاق والأنفال[3]، وجعل للرجال نصيبا يختلف باختلاف سابقته فى الإسلام والجهاد، لأنه "لا يجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، ولا يسوى بين مهاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف[4] فإقامة أبى عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق ولا ينتظر منه غيره، وبخاصة حين تكون إمارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول، إنما هى اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوما بعد يوم.

---

(١) سابقة: يقال (له فى الأمر سابقة) إذا سبق الغنيمة فى الحرب.

(٢) أنصباء: جمع نصيب.

(٣) الأنفال: جمع نفل (بفتح النون والفاء) وهو الغنيمة فى الحرب.

(٤) لا يسوى بين الخ: الهجرتان هما الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة، والقبلتان هما بيت المقدس والكعبة، وكان اتجاه القبلة فى السنوات الأولى إلى بيت المقدس، ثم نزل توجيه قرآنى بالاتجاه إلى المسجد الحرام.

وبهذه المثابة تكون ولاية أبى عبيدة سنة عمرية معروفة، ولا يبلغ منها أن تكون "قضية" بين الفاروق وخالد على الصورة التى هول بها بعض المؤرخين، واتخذوا منها محورا للجدال، والتنقيب عن الأسباب والأقوال..

وإذا نحن تجاوزنا النظر إلى الموضوع من جانب هذه السنة العمرية، فولاية أبى عبيدة كانت فى اعتقادنا أصلح الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت إليها الحرب بين المسلمين والروم فما نظن أحدا تفوته حاجة الشام فى مثل تلك المرحلة التى انتهت فيها بطشه الحرب الكبرى، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة. وهذه مهمة وال يحسن التوجيه إليها فى مناسباتها، وليست مهمة قائد عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء طاحنة ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والإحراج، كما كان دأب خالد فى بطشانه التى لا تبقى بعدها بقية لغير الإجهاز[١].

وإذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك، فلا خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذاك: أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد، سواء أكان الخليفة على رأى الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفى سوابق الإسلام والجهاد.

ونمى رلى الفاروق بعد ذلك أن خالدًا وعياضا أغارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب، وأن الأشعث بن قيس خالدا ومدحه فأجازه[٢] بعشرة آلاف درهم، وأجاز آخرين من "ذوى البأس وذوى الشرف وذى اللسان"

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب إلى أبى عبيدة: "أن يقيم خالدا

---

(١) الإجهاز: من قلوهم (اجهز على الجريح) إذا أسرع فى قتله ونعم عليه.

(٢) أجازه: كافأه.

ويعقله[١] بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث، هل من مال الله أم من مال أم من إصابة أصابها[٢]؟ فإن زعم أنه من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم من ماله فقد أسرف" ، وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال، وأن يضم إليه عمله - وكان يومئذ يولى أمور قنسرين[٣] - وأن يقاسمه ماله نصفين. .

فصدع أبو عبيدة بالأمر، وجمع الناس وجلس على المنبر، ودعا بخالد فسأله: يا خالد. . أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجب، وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة. فوثب إليه مؤذن النبى عليه الصلاة والسلام وقال له: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول عمامته ونفضها وعقله بها وخالد لا يمنعه، وسأله: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ فقال: لا، بل من مالى فأطلقه وعممه بيده وهو يقول: نسمع ونطيع لولاتنا، ونفخم ونخدم موالينا"

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا. فقال خالد: أجل. ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك. .

ولما علم خالد بعزله ذهب إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم، ثم ذهب إلى حمص فخطب أهل وودعهم، وقال فى بعض خطبه: "إن أمير المؤمنين استعلمنى على الشام حتى إذا كانت بثنيه وعسلا[٤] عزلنى وآثر بها

---

(١) يعقله: يوثقه ويربطه.

(٢) من إصابة أصابها: من مال حصل عليه عن طريق الغارة على بعض بلاد الروم.

(٣) يعنى خالد، فقد كان على قنسرين تحت امرأة أبى عبيدة وإلى حميص.

(٤) البثينة: حنطة منسوبة إلى موضع بالشام، وقيل من الزبدة، وفى أساس البلاغة وسميت المرأة بثنية، كما بثنبة كما سميت زبيدة.

غيرى". فنهض له رجل من السامعين فقال: صبراً بها الأمير، فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حتى فلا"[1].

ثم قصد إلى المدينة فلقى الفاروق فقال له: "لقد شكوتك المسلمين. وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر[2]..."فسأله الفاروق: "من أين هذا الثراء؟.. قال: من الأنفال والسهمان[3]. ما زاد على الستين ألفا فلك" فزادت عشرون ألفا فضمها إلى بيت المال. ثم قال له: يا خالد: "والله إنك على لكريم، وإنك إلى لحبيب، ولن تعاتبنى بعد على شيء" وأرسل إلى الامصار بأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه: "إنى لم أعزل خالدًا عن سخطه ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا. وألا يكونوا بعرض فتنة"[4].

تلك قصة خالد والفاروق..

وهى قصة تؤلم وتؤسف، إلا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التى لا محيد عنها، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخطط والجهالة. لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها، وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير..

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر، أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء، أو لغير سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة..

(١) ارجع إلى تفصيل القول فى هذا الموضوع فى كتاب (عبقرية عمر - طبعة الوزارة ص٦١).

(٢) غير مجمل: لم تراع الاعتدال والمجاملة. (٣) السهمان: جمع سهم وهو النصيب.

(٤) فى رواية الطبرى "فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وإلا يكونوا بعرض فتنه" أى لا يتعرضوا للفتنة، وهى رواية أفضل.

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم كما سبق إلى وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالدا لبغضاء قديمة مرجعها إلى الصراع بينهما فى أيام الصبا، وأن خالدا صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجداً عليه..[1].

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم إلى ظن من هذه الظنون. فليس بين رجال التاريخ جميعا من هو أصعب تخطئه من عمر بن الخطاب، لأنه ليس جميعا من هو أشد حسابًا لنفسه ومراجعة لنياته منه، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية دخل أو ثأر قديم لكان أثر هذا الإحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخالفة من خدعة نفسه وتضليل هواه..

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته. فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحضى فظهرت فيه الزيادة. وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال إنه عزل "لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله[2]، وكان يحسب قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش. ولقد تبين بعد أنه من قريش[3]..

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعا أن يراجعوه فى الأموال، وبذلك أشار على أبى بكر فوافاه الحساب من كل وال إلا خالدا أبى وأغلظ له فى الجواب حيث قال: "إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك وعملك"

فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. فلم يطقها عمر وقال: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه"

---

(١) واجدا عليه: غاضبا عليه.

(٢) فضل عقله: الفضل من الزيادة يعنى رجحان عقله عن سائر الناس.

(٣) وذلك أنه كان مجهول الأب، وفى عهد معاوية شهد ناس من المسلمين أنه ابن سفيان، فاستحلقه معاوية، أى اعترف به أخا له. وأرجع إلى القصة فى عبقرية عمر" ص٨٣.

هذا إلى الخلاف بين سنن[1] عمر فى سياسة الناس وتصريف الشئون وسنن خالد التى طبع عليها فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال، ومن ثم كان إنكاره لمقتل بنى جذيمة ومقتل مالك بن نويرة، وعفوه عن أسرى السواد خلافا لما صنع بهم خالد فى معركة أليس أو نهر الدم كما سميت هو كفء لقيادته حم عمر : "قيس بن سليط" أن يقود جيشا هو كفء لقيادته قائلا له: "لولا أنط رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش. والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث"[2].

وإذا كان عمر قد أوجس من عقل زياد بن أبيه وهو مجهول النسب، فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر. إنه لعظيم النزعة إلى الاستقلال، وإنه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين، وله صهر فى سائر القبائل والبطون، ولأبنائه أخوال فى بنى تميم حنيفة، ولشهرته سحر فى نفوس الناس يفعل الأعاجيب، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسباته ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور فى دولة الإسلام. فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع إلى المدينة يوما فإذا يغرز فى عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال.. فعبد غلبته على الآكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره فى الأمصار ماذا يجرى لو وهو الحكم يوما بعد "ابن الخطاب"؟..

أما و"ابن الخطاب حى فلا"، كما قال خالد. ولكن ابن الخطاب لا يدوم، والواقب لا تنكشف، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل، ومن أثرهم أن يثوب الناس إلى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن غيره.

أما الاحتمال الآخر - إن حدث - فالخطر فيه عظيم، والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل وهذا كله فضلا عن

---

(١) السنن: جمع سنة وهى الطريقة.

(٢) المكيث: الرزين المتأنى.

مرد العزل إلى القسطاس الذى يرد هدوء الغضب والمثوبة[١] إلى الرأى، فقال فى مرض وفاته لأبى الدراء: "قد كنت وجت عليه[٢] فى نفسى فى أمور لما تدبرتها في مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل. كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلى من يقاسمنى من أهل السابقة ومن شهد بدرا. كان يغلظ على وكانت غلظته على غيرى نحواً من غلظته على، وكنت أدل عليه بقرابة[٣] فرأيته لا يبالى قريبا ولا لوم لائم فى غير الله، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه، وكان يكسر على[٤] عنده وما كان ذلك إلا على النظر.. كنت فى حرب ومكابدة، وكنت شاهد وكان غائبا، فكنت أعطى على ذلك، فخالفه ذلك من أمرى"

ولقد توفى رحمه الله وه يجعل وصيته وتركته وإنقاذ عهده إلى ابن الخطاب..

ونحن اليوم ننظر إلى القصة بعين التاريخ فنرى - كما أسلفنا - أن الفاروق إنما ختم دورا ختمه القدر وانقضت به الحوادث. فلم يكن بعد القمة التى ارتفع إليها خالد فى ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق. ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التى تسنم فيها صعداً[٥] من غلبته على طليحة ومسيلمة إلى غلبته على القياصرة والأكاسرة: تلك هى قمة التجمل[٦] والإخلاد إلى الواجب الأليم يوم عزله. فهى والله لمما يحسب له إلى جانب قممه البواذخ، قمم العظيم الظافر الجسور.. وأين - لولا عزله - كنا بنصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع.

---

(١) المثوبة إلى الرأى. الرجوع إلى الصواب.

(٢) وجدت عليه: غضبت عليه، من (الموحدة) أى الغضب.

(٣) أدل عليه: اجترئ عليه، من (الدالة).

(٤) المراد أنه كان يستكثر ما أعطى من مال.

(٥) صعدا: (بضم الصاد والعين) يقال هذا النبات يتحمر صمدا، أى يزداد طولا.

(٦) التجميل: الظهور بما يجعل.